مجلة بحوث
كلية الآداب

البحث (١)

لا نهائية القوائم من هوميروس حتى جويس.
لأمبرتو إيكو:
مراجعة علمية وقراءة فى آفاق الاستثمار

إعداد

أ.د / خالد فهمى

كلية الآداب - جامعة المنوفية

السنة ٢٥ العدد (٩٩) أكتوبر ٢٠١٤م

http : // Art.menofia . edu. eg *** E- mail: rifa2012@ Gmail.com

Scanned with CamScanner

لا نهائية القوائم من هوميروس حتى جويس.

لأمبرتو إيكو:

مراجعة علمية وقراءة في آفاق الاستثمار

أ.د. خالد فهمي

كلية الآداب/ جامعة المنوفية

مدخل: خطأ احتمالي!

هل أخطأ علماء المعجم عندما رأوا أن القوائم: The lists تطورت بعد إضافة مجموعة أخرى من الوظائف في صورة معلومات شكلية ودلالية وتنظيمية؛ لتصبح معجمات؟

وبتعبير آخر هل أخطأ علماء المعجمية عندما نظروا إلى القوائم الجامعة للألفاظ تعيينا على أنها معجمات سقط، أو خديج، لم يسمح لها الزمان، ولا العلم بأن تنضج كي تولد معجمات؟

ربما!

إن كتاب الإيطالي المعاصر: أمبرتو إيكو/ Umberto Eco:(لا نهائية القوائم : من هوميروس حتى جويس) أو "vertigine dellalista"يفتح الباب من جديد نحو مراجعة موقف المعجميين من القوائم، وتقديرها، إنه يعيد هز الثقة في ما ظهر في دراسات تاريخ المعجم، وتطوره ، وصدره دارسوا المعجمية باطمئنان بالغ وصاغوه في القانون الذي تجاوز حدود الفرضية الذي يقرر: إن أصل المعجم كان قائمة سمحت للزمان أن يطورها، ويعيد تجميلها بما نهض بها، وغير من ملامحها، لتكون معجما وربما موسوعة كذلك.

يقول إيكو في محاولة افتتاحية لإعادة التفكير الجاد في مراجعة القول في الموقف من تقدير القائمة: (ص:٩) : وربما اعتقدنا، لأول وهلة، أن الشكل شئ تختص به الثقافات الناضجة التي تعي العالم حولها، وتمتلك نظاما محددا.

" لكن القائمة على النقيض من ذلك، أمر غطى لدى الثقافات البدائية التى تمتلك صورة غائمة عن الكون، وتقصر عملها على وضع قوائم بخواصه، قدر ما تستطيع ،من دون أن تحاول إقامة علاقة هرمية بين هذه الخواص".

ثم يقرر من جديد أن واحدا من أدلة عدم صدق هذه النظرة الهامشية للقوائم هو معاودة ظهورها في عصور زمنية يستحيل أن توصف بالبدائية، فيقول: (ص:٢٠) : " وقد ظهرت القائمة من جديد في العصور الوسطى، حين زعمت المختصرات اللاهوتية والموسوعات تقديم شكل تعريفي للكون الروحي والمادي،

Scanned with CamScanner

وكذلك في عصر النهضة والعصر البازوكي، حيث تبدى شكل العالم من علم الفلك الجديد، وظهرت القائمة بصورة خاصة في عالم الحداثة وما بعدها؛ مما يؤشر إلى أنها مواضيع لقوائم لا متناهية، وذلك لأسباب مختلفة ومتعددة".

ولهذا كله فإن السؤال الافتتاحي هنا يصبح مقبولا جدا، ويصبح اطمئنان المعجميين في نظرتهم للقوائم بما هي مواليد من نوع السقط سلوكا مغرورا إلى حد كبير.

(١) لا نهائية القوائم: المادة والانتماء المعرفي:

كتاب لا نهائية القوائم: من هوميروس حتى جويس، لأمبرتوإيكو، وترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، ومراجعة الدكتور أحمد خريس صدرت طبعته الأولى عن هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة،(كلمة) سنة ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.

(١/١) وقد تضمن هذا الكتاب مقدمة وواحدا وعشرين فصلا، كما يلي:

١- الترس وشكله/٢.القائمة والكتالوج/٣. القائمة البصرية/٤. ما لا يوصف/ ٥. قوائم الأشياء/٦.قوائم الأماكن/٧. قوائم وقوائم/٨. التبادلية بين القائمة والشكل/٩. بلاغيات التعداد/ ١٠. قوائم العجائب/ ١١. المجموعات والكنوز/١٢. غرفة العجائب/١٣. التعريف عبر قائمة الخواص مقابل التعريف عبر الجوهر/١٤. التلسكوب الأرضي/ ١٥. الإفراط في رابلييه فصاعدا/ ١٦. الإفراط المترابط/١٧. التعداد الفوضوى/١٨. قوائم الإعلام/١٩. القوائم اللانهائية/٢٠. التبادلات بين القوائم الشعرية والعملية/٢١. القائمة غير الطبيعية.

يفتتح إيكو كتابه مقررا أن كتابه هذا جاءت استجابة لدعوة تلقاها من إدارة متحف اللوفر، ليشارك في فعاليات ثقافية وفنية في نوفمبر ٢٠٠٩م، وتركت له تعيين الموضوع، واختياره يقول(ص:٩) :" حين دعتني إدارة اللوفر كي أنظم طوال شهر نوفمبر من عام ٢٠٠٩م- سلسلة من المؤتمرات، والمعارض، وجلسات القراءة للجمهور، والحفلات الموسيقية، وعروض الأفلام، وغيرها من الفاعليات المشابهة التي تختص بموضوع أختاره بنفسي- فإني لم أتردد لحظة ، وتقدمت من فوري بموضوع " القائمة"، (و) ستتناول موضوعي: الكتالوجات والتعداد أيضا"!

(٢/١) وهذا الكتاب بمادته وتصميمه وإخراجه والحافز الذي حفز إليه صالح لأن ينتمي إلى مجموعة من الانتماءات المعرفية بتحكيم هذه المعايير مضافا إليها مجموعة أخرى من المعايير من مثل: الوظيفة أيضا.

Scanned with CamScanner

وفي ما يلي محاولة بيان بعضٍ من هذه الانتماءات المعرفية التي تعين القارئ أو المستعمل العربي على استثماره المعاصر:

أولا- البحث المعجمي والمراجع

استقر النظر، وما زال في بعض الأدبيات، إلى القوائم على أنها أعمال معجمية غير ناضجة. وهذا النظر يحملنا على إدراج هذا الكتاب ضمن دراسات البحث المعجمي، وهو ما يمكن أن يطور هذه النظرة.

إن كتاب لا نهائية القوائم يعيد الاعتبار والتقدير للقوائم، ويعدها أعمالا مستقلة توازي الأعمال المعجمية الناضجة، وأنها تنهض بعدد من الوظائف والمقاصد المستقلة عما تنهض به المعاجم الكاملة.

إن هذا الكتاب يوشك أن يتحول بالقائمة لتكون عملا مرجعيا متمايزا عن المعاجم والموسوعات ومن ثم فإن عناية أمبرتو إيكو بالقوائم ربما فتحت الباب أمام إدراجها ضمن المراجع؛ لاعتبارات كثيرة متوافرة، يمكن إجمالها في:

أ- القوائم مفاتيح معرفية.

ب- القوائم أوعية معلومات.

ج- القوائم مدونة متنوعة الاستعمال، علميا وفنيا.

إن العنصرين الأول والثاني(أ،ب) هنا شائعان في دراسة المراجع عند المعاصرين، كما يقرر الدكتور عبد الستار الحلوجي والدكتورة منى شاكر عبد اللطيف[مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م، ص: ظهر الكتاب].

وما يعكس هذا الانتماء ممتد في الكتاب كله؛ إذ توقف إيكو أمام عدد كبير من أنواع القوائم، وفحص محتوياتها، ولاسيما وهو يستدعي في تحليل عدد منها معطيات نظرية المجموعات، على ما يظهر مثلا من تحليله لقائمة بورخس(ص: ٤٦٣)الخاصة بالحيوانات.

ثانيا- الأدب وتاريخ الأدب

ينتمي هذا الكتاب إلى الأدب بمعناه الضيق الدائر حول الإبداع الشعري والنثري، لقد كان الحافز الأساسي وراء تفكير إيكو في تصنيف هذا الكتاب هو ذلك التوظيف من جانب جنس الرواية تعيينا للقوائم على امتداد الزمان، يقول إيكو:(ص:٩): " إذا قيض (لامرئ) ***قراءة رواياتي*** فإنه سيجدها ***تغص بالقوائم***، وقد تمثلت أصول هذا الولع في مادتين درستهما شابا، وهما : النصوص القروسطية، وأعمال جيمي جويس... وبينما كان هذا الأمر واضحا وضوحا كبيرا لدىّ -فإني لم أضع على عاتقي قط الاضطلاع لإعداد سفر مفصل يضم بين دفتيه الحالات غير

Scanned with CamScanner

المتناهية التي يقدم *تاريخ الأدب* أمثلة عليها وبدءا من هوميروس ومرورا بجويس وانتهاءً بوقتنا الحاضر".

إن هذا الاعتراف بالولع الكامن خلف إنجاز إيكو كتابه مرتكز على ما يلي:

أ- نماذج القوائم المستثمرة في أعماله الروائية المختلفة.

ب-مالاحظه من استثمار النصوص الإبداعية القصصية والروائية المتواصلة من القرون الوسطى حتى العصر الحديث- لمجموعات من القوائم المتنوعة الموظفة بطرق فنية.

ج- التتبع التاريخي لأنواع القوائم المستثمرة في الأعمال الأدبية في تاريخ الآداب من زمان الإغريق إلى الوقت الراهن.

وهذه المرتكزات الثلاثة التي تلوح من وراء ستائر تحليل هذه الفقرة المنقولة من مقدمة: لا نهائية القوائم لإيكو تصنفه ضمن كتابات الأدب وتاريخه بامتياز.

ثالثا- السيميائية (علم العلامات)

إن بناء كتاب إيكو: لا نهائية القوائم على اللوحات والرسوم بشكل تأسيسي يدرجه ضمن كتابات السيميائية، ذلك أن هذه القوائم البصرية واللوحات الفنية تتجاوز الحدود الضيقة لكي تكون علامات ذات دلالات متنوعة، تعتمد في تحليلها على السياقات الزمنية والتاريخية والاجتماعية.

إن هذا الكتاب بما ضمه من لوحات وقوائم بصرية يعد مدخلا لفهم النظام الكوني" في الغرب ؛ ذلك أن السيميولوجيا" هي علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها وهذا يعني أن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة" على حد تعبير الدكتور مازن الوعر في تقديمه لكتاب بيير جيرو: علم الإشارة السيميولوجيا[ترجمة الدكتور منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق سنة ١٩٨٨م(ص:٩)].

ومن ثم فإن ما ضمه الكتاب من رموز موزعة على تاريخ ممتد، وما جاء حولها من تحليلات تمثل مقدمة بصور من الصور لدراسة الحياة الأوربية من منظور سيميائي.

رابعا- تاريخ أوروبا الثقافي

إن هذا الكتاب بما ضمه مما يلي:

أ- عشرات اللوحات وتحليلها.

ب- عشرات القوائم وتحليلها.

Scanned with CamScanner

ج- عشرات النماذج الأدبية والروائية والشعرية الأوربية التي استثمرت عددا كبيرا من القوائم، يمكن أن يكون مقدمة لقراءة تاريخ أوربا الثقافي.

إن كثيرا من هذه اللوحات التي ألحقها إيكو بكتابه تمثل تصويرا فنيا بديعا من جانب، لكنها تصوير لرؤية الإنسان في القارة العجوز للوجود والكون والحياة والأحياء، مما يجعل هذا الكتاب بما ضمه مما أخبرتك به- مدخلا حقيقيا لتاريخ العقل الأوروبي.

لقد ضم هذا الكتاب نظرة الأوروبي للحياة، وللأباطيل، وللمدرسة، وليوم القيامة(الدينونة)، والحياة البحرية، وللعلويات، وللسوق، والعالم بقاراته المختلفة في التصور الجغرافي القديم، وخرائطه، وحيواناته، وثوراته، وللحياة الدينية، وللمقدسات ، والطقوس، وتاريخ الأنبياء، وأنسابهم، وللطوفان، وللمواد المعروفة في التصنيف للعناصر الكيميائية، إلخ، كل ذلك من خلال مجموعة ضخمة من اللوحات الفنية التي تصور نظرة الأوروبي للحياة والوجود والكون معا على امتداد تاريخ هذا الإنسان فوق هذه الأرض.

وليس من مسوغ لانفتاح هذه القراءة على العالم؛ ذلك أن إيكو حدد النطاق المكاني لدراسته بالقارة العجوز= أوروبا، وهو التعيين الوارد من العنوان الجانبي للكتاب: (من هوميروس حتى جويس)، وهما شاعران أو أدبيان بالمعنى المتسع للشعرية والأدبية في تاريخ أوروبا، وهما علامتان تضمان في الفترات الواقعة بينهما أجيالا عظيمة من المؤرخين والفنانين والكتاب والشعراء والقصاصين والروائيين والمسرحيين وغيرهم.

خامسا- بلاغة الصورة

صح أن هذا الكتاب بما ضمه من لوحات، ورسومات كنز ضخم للعلامات المرئية، غير اللغويةvisual sign، وهي كيانات تشكلها عناصر ثلاثة هي:

أ- الدال(الصورة المادية)

ب-المدلول(المفهوم من الصورة)

ج- المرجع(العائد عليه الصورة في الواقع الخارجي)

على حد تعبير كتاب: بحث في العلاقة المرئية: من أجل بلاغة الصورة [لمجموعة مو (فرانسيس إدلين، وجان ماري كلينكنبرغ، وفيليب مانغيه) ترجمة د. سمر محمد سعد، ومراجعة خالد ميلاد، ص: ٥٦٨)]

Scanned with CamScanner

وعلم بلاغة التواصل المرئي:" تأسيس نظري يرمي إلى كيفية اشتغال المنظومات البلاغية داخل السيمائية، وإلى مدى يمكن تطبيقها على الإيقوني والتشكيلي" كما تقرر مجموعة مو (ص:٥٥٦).

وفي هذا الكتاب كنز من الصور الإيقونية والتشكيلية تمثل مادة خام وتأسيسية عميقة في بلاغة التواصل المرئي في الثقافة الأوروبية على امتداد تاريخها من الحضارة الإغريقية حتى الحضارة الحديثة.

سادسا- الببليوجرافيا المصورة

يعقد إيكو الفصل الثاني : القائمة والكتالوج(ص:١٧-٤٠)، وهو إذ فعل يدخل بنا مباشرة إلى التفريق بين:

أ- القائمة اللفظية(list)

ب- القائمة المصورة (catalog)

وإيكو يقرر أن الكتالوج تقوم بعملية تمثيل للوجود من طريق نمط تمثل فيه الصور والرسومات المركز والمحور الأساسي.

وهذا الكتاب يمثل نموذجا ممتازا لدراسة في الببليوجرافيا التحليلية للمنجز الأوروبي من خلال تحليل هذه القوائم المصورة أو الكتالوج الضخم.

سابعا- تاريخ الفن في أوروبا.

يقول إيكو في(ص:١٧) : مهما يكن من أمر فثمة أنموذج آخر من التمثيل الفني؛ وأعني بذلك أننا حين لا نعرف حدود ما نأمل في تصوير، ونجهل عدد الأشياء التي نتحدث عنها، فإننا نفترض أن عددها، إن لم يكن لا نهائيا، فإنه على أقل تقدير كبير بصورة فلكية... فما انفك ***تاريخ الفن*** يردد ذلك"!

في هذه الفقرة يتضح الربط الجلي بين هذا الكتاب بتاريخ الفن في القارة الأوروبية؛ إن مئات اللوحات التي ضمها الكتاب على امتداد تاريخ أوروبا من قبل الميلاد إلى العصر الراهن تمثل كتالوجا يؤرخ لتطور الفن فيها.

هذه مجموعة من الحقول المعرفية يمكن للكتاب أن ينتمي إليها، وأن يعد مصدرا يسهم في تغذية الدرس المرتبط بها.

صحيح أن بينها تفاوتا من جهة درجة العائد الاستثماري على المستعملين المعاصرين في الحقول المعرفية المختلفة، لكنها جميعا مع إقرار هذا التفاوت ظاهرة القيمة. ليس فيها شطط في بيان العلاقات التي تحكم بانتماء كتاب: لا نهائية القوائم إليها جميعا.

Scanned with CamScanner

وهي جميعا كاشفة عن الآفاق الرحبة التي تمدد فيها الدرس الأدبي والسيميائي واللساني المعاصر في أوروبا بفعل مجموعة من العوامل المعينة على تمدده من مثل:

أ- رعاية مقامات التراكم المعرفي.

ب- احترام الروابط بين الحقول المعرفية، توسيعها.

ج- تنمية العلاقات المعرفية بين المؤسسات الثقافية والأفراد من ذوي الكفاءات العلمية.

د- مناخ الحرية البحثية الممتاز الذي تتيحه السياسات الأوروبية للدارسين والباحثين.

هـ- تشجيع الدراسات البينية، ودعم معاملها ومختبراتها.

و- جسارة العقل الأوروبي، وهجومه على المناطق الفارغة على خرائط البحث العلمي، وهي جسارة أتته من تاريخ عريق من الشجاعة البحثية.

(٢) القوائم: هل نكون نوع مستقلا من المراجع ؟!

إن تحليل كتاب إيكو: لا نهائية القوائم، يكشف عن أنواع من القوائم ، يمكن حصرها في ما يلي:

أولا- القوائم اللفظية.

ثانيا- القوائم البصرية.

وهذا النوع من القوائم البصرية يقول عنه إيكو: (ص:٤٨) :" ومن الممكن أن يقع المرء من حيث المبدأ على القائمة في أشكال فنية أخرى"!

وإذا كان المرجع في التصور المبدئي له وعاء للمعلومات بالأساس فإن التحليل العلمي لجنس القوائم(اللفظية والبصرية) بما تحتوي عليه من معلومات ، وتصورات للحياة والأحياء، والوجود والكون- يقود إلى الإقرار بأن القوائم يمكن أن تشكل نوعا مستقلا من المراجع.

وربما يدعم هذا التوجه من جانبنا مجموعة من القرائن التي تتبدى من وراء قراءة كتاب إيكو قراءة فاحصة دقيقة متأنية.

إن ثمة أنواعا للقوائم تلوح من خلف تحليل البنية العميقة لكتاب إيكو، وهي أنواع تتعدد تبعا للاعتبارات المختلفة، كما يلي:

إن القوائم، بما هي جنس مرجعي مستقل، يمكن أن تقسم تبعا لاعتبار العملي والفني إلى النوعين التاليين:

أ- القوائم العملية/البرجماتية.

Scanned with CamScanner

ب-القوائم الشعرية/ البويطيقية، يقول إيكو: (ص:١٣١):" ونعني بهذا المصطلح الأخير؛(أي: الشعرية) أي غاية فنية كانت وراء اقتراح القائمة، وأي شكل فني استثمر للتعبير عن هذه القائمة".

وربما أمكن تقسيم القوائم، مرة أخرى، تبعا لاعتبار المادي والمجرد إلى النوعين التاليين أيضا:

أ- قوائم الأشياء.

ب- قوائم المجردات، أو المتخيلات.

وبالإمكان تقسيمها أيضا قسمين آخرين هما:

أ- قوائم الواقعيات ب- قوائم العجائب.

ثم يعود إيكو في الفصل الذي عقده للحديث عن : قوائم وقوائم(ص:١٣١-١٤٨) ليقرر أن كل نوع من هذه الأنواع صالح لأن يقسم أقساما كثيرة ؛ فالقوائم العملية؛ أو البرجماتية، تتوزع على ما يلي:

أ- قائمة التسوق.

ب- قائمة المدعوين الضيوف إلى حفلة ما.

ج- قائمة جرد الأشياء الموجودة في مكان ما.

د- قائمة الأصول أو الممتلكات.

هـ- قائمة المطعم.

و- قائمة المناظر في دليل سياحي.

وغير ذلك كثير من الفروع، لدرجة أن إيكو يعتبر المعجم قائمة عملية/ برجماتية. يقول (ص١٣١) :" ويمكننا أن نمثل على القائمة العملية بقائمة التسوق، وقائمة الضيوف المدعوين إلى حفلة، وكتالوج المكتبة، وقائمة جرد الأشياء الموجودة في أي مكان؛ مثل المكتب، أو المركز الأرشيفي، أو المتحف. وتضاف إلى ذلك قائمة الأصول أو الممتلكات في وصية، أو فاتورة السلع التي تتطلب التسديد، وقائمة المطعم، وقائمة المناظر الطبيعية في دليل سياحي، وحتى المعجم الذي يحوي بين دفتيه كل مواد لغة بعينها"!

ويعين أمبرتو إيكو ثلاث وظائف لجنس القائمة تدعم استقلالية كونها نوعا قائما بذاته من الأعمال المرجعية، هي:

أولا- الوظيفة الإحالية، فهي تحيل بكلمات على الأشياء في العالم الخارجي، إنها تحقق وظيفة عملية خالصة في تسمية الأشياء.

ثانيا- الوظيفة التسجيلية؛ أي:" أنها تسجل الأشياء المعروفة والموجودة فعلا".

Scanned with CamScanner

ثالثا- الوظيفة التاريخية والأخلاقية، ويقصد بها : أن هذه القوائم لا تتغير، وهو ما يعني على تعبير إيكو :(ص:١٣١):" أن من غير الأخلاقي وغير المنطقي أن يضمن كتالوج لأحد المتاحف لوحة غير موجودة فيه".

إن مجموع هذه القرائن تحمل قارئ كتاب: لا نهائية القوائم على الاقتناع بأن القوائم باتت قريبا من الإعلان عن ميلادها عملا مرجعيا متمايزا من جهات مختلفة، يمكن إجمالها في ما يلي:

أولا- الخصائص الفارقة المائزة لها من غيرها من الأعمال المرجعية.

ثانيا- القابلية للتنوع والتقسيم والتفريع.

ثالثا- التنوع الوظيفي والمقاصدي.

(٣) القائمة وخصائصها بما هي مرجع!

إن النظر إلى القائمة، بأنواعها المختلفة والمتمايزة معا، بما هي نوع مرجعي مستقل له حضوره الظاهر في الثقافات المختلفة لن يستكمل حضوره إلا بعد رصد خصائصه الفارقة.

وإذا كان قد استقر النظر إليها من زاوية كونها عملا مرجعيا موازيا للمعجم، وليس أقل منه في التطور والنضج، فإن إدراجه ضمن الأوعية التي تتضمن المعلومات وتحتويها.

إن القوائم تسعى إلى تعريف الأشياء من خلال تعريفها بما يكشف عن هويتها، برصد سماتها الكاشفة والفارقة معا، يقول (ص:٢٤٧):" تمثل حلم الفلسفة والعلم منذ أيام الإغريق فصاعدا في معرفة الأشياء وتعريفها عبر إبراز جوهرها ؛ فلقد كان تعريف الشئ في جوهره ماثلا منذ أرسطو في القدرة على تعريف شيئ بعينه بوصفه فردا في صنف ما، وهذا الصنف بدوره عنصر في جنس بعينه".

ومن ثم فإن أهم ما يميز عمل القوائم هو أنها تمدنا بمعرفة الأشياء من طريق تعريفها عبر الخواص.

إن القوائم تمدنا بتعريفات للأشياء التي نفتقد معرفة جوهرها ، يقول(ص:٢٤٨): " ونحن نستعمل التعريف بذكر الخواص حين لا نمتلك تعريف جوهريا، أو إذا لم يف هذا الأخير بحاجتنا. ومن هنا فإن التعريف الأول (بذكر الخواص) ملائم للثقافات البدائية التي ما زالت تعتمد على بناء تسلسل هرمي للأجناس والأنواع ، كما أنه ملائم للثقافة الناضجة، وربما تلك المأزومة".

ومن ثم فإن القوائم بإمكانها أن تسهم في تطوير الحقول التالية:

Scanned with CamScanner

أولا- التعليم في المراحل المبكرة التي يناسبها ذكر الخواص العارضة للأشياء عند تعريفها عند صعوبة تعريف الأشياء تعريف جوهر يأتي على ذكر جوهر ماهيتها العلمي.

ثانيا- تبسيط العلوم؛ سعيا لنشر الثقافة العامة، وتحددها طلبا لترقية الوعي العام بالعلوم.

ثالثا- تنمية الذكاء العام للفئات المتراجعة علميا.

رابعا- تقريب الفجوة المجتمعية بين اللغة العلمية المتعالية المغلقة، والثقافة الشعبية العامة.

إن القائمة – والوضع كما نرى، بإمكانها أن تتقدم لتقدم خدمات جليلة لم يستطع حتى الآن كثير من أنواع الأعمال المرجعية القيام بها، ولاسيما في إطار تنامي القوائم البصرية تعيينا.

(٤) القوائم : من الطريق لإدراك العالم إلى الطريق لخلقه!

(١/٤) إن تحليل مجموعات القوائم التي أوردها أمبرتو إيكو في كتابه: لا نهائية القوائم، تقود إلى الإيمان بأن الفحص الدقيق لمجموعات هذه القوائم يمثل طريقا لإدراك العالم من وجهة نظر أوروبية، يقول إيكو(ص:١٤) :" فالسرد يخبرنا سواء جاء عبر الكلمات أو الصور أن العالم الحقيقي أو العالم المتخيل، مثل عالم الحكايات الخرافية أو الخيال الشعري- يمتلك مواضيع أو وضعيات من هذا النوع أو ذلك".

وقيمة هذا النقل ظاهرة في أنه جاء في الفصل الافتتاحي الذي عقده لتحليل ترس أخيل الذي يمثل نوعا من التجلي للشكل والطريقة اللتين يتدبر الفن عبرهما بناء التمثيلات المتناغمة التي تؤسس النظام".

وتتبع فصول الكتاب كاشفة عما يلي:

اولاً – كثير من القوائم تمنحنا فكرة واضحة عن الثقافة الزراعية/ والحيوانية/ والحربية وغيرها.

ثانيا- كثير من القوائم تعيد تمثيل العالم تمثيلا فنيا في عصرها الذي أنتجها، يقول إيكو(ص:١٧) " لقد كان هوميروس (مثلا) قادرا على بناء تخيل/ شكل مغلق... فهو ***يفقه العالم*** الذي يتحدث عنه، ويعرف قوانينه، ومسبباته وعواقبه، ولهذا كان مقتدرا على إعطائه شكلا"!

ثالثا- كثير من القوائم تعطينا وصفا حيا للعالم، ولاسيما فيتأمل وظائف القوائم البصرية.

Scanned with CamScanner

رابعا- كثير من القوائم، مما يعرف بقوائم الأماكن يهب المثقف المعاصر وعيا بالحدود المادية/ الفيزيائية للعالم في عصور إنتاج هذه القوائم، فضلا عما تمثله من معان تتجاوز الإدراك الفيزيائي للعالم إلى إدراك كثير من القيم المرتبطة بالمادة فيه.

خامسا- ينبه إيكو إلى أن كثيرا من القوائم(اللفظية/ والبصرية) تمثل تمثيلا روائيا وقصصيا للعالم يمكن تحليله بلاغيا.

سادسا- تجاوز القوائم إلى العجائب.

يقرر إيكو أن كتاب: بولونيوس: التاريخ الطبيعي(ص:١٧٣):" لن يكون سوى قائمة" تضم ذكر: السماوات / والجغرافيا/ والديموغرافيا(السكان)/ والإتنوغارفيا(الأعراق وعاداتها)/ والأنثروبولوجيا(علم الإنسان) / وفسيولوجيا الإنسان(علم الأعضاء)/ وعلم الحيوان/ وعلم النبات والزراعة والبستنة/ ودستور الأدوية والطب والسحر،... والمعادن والعمارة والفنون التشكيلية، مقيما ضربا من التراتبية من الأصل إلى الفرع ومن الطبيعي إلى المصطنع " وهذا هو المدخل إلى العجائبي في القضية؛ الأمر الذي يفتح المجال أمام انطلاق المخيلة الإنسانية سعيا نحو التخلص من مشكلاتها المأزومة الواقعية.

ومن هذه النقطة تبدأ القوائم تقديم خدمتها الجليلة الأخرى المتمثلة في خلق التصورات.

(٢/٤) إن جزءا كبيرا من قوائم كتاب إيكو بأنماطها المختلفة يمكن استثمارها في تحليل عمل العقل الغربي الفنان في إدراك العالم.

غير أن ثمة جزءا كبير من هذه القوائم أيضا يمكن أن تقرأ تحليلا في سياق تخليق العالم، وبناء تصوراته المتخيلة سعيا إلى مضاعفة الشعور باللذة من جانب، وسعيا إلى تجاوز المشكلات الضاغطة للواقع في كثير من مناطق تأزمه وهزائمه!

وسعيا من جانب أخير لتطوير الحياة ولاسيما في مجالات العمران والأغذية والطب وأنواع المباهج الأرضية، وهو الأمر الذي أنتج ما يسمى بالقوائم المفرطة.

إن المرء لا يتجاوز عندما يقرر أن كثيرا مما شهده العالم في عصور لاحقة كان تجيل لمنجز سابق أستلهمه اللاحقون من عمل السابقين، وانطلاق مخيلاتهم بالعجيب.

لقد مر تأليف القوائم بمرحلتين يمكن التمييز بينهما في ما يلي:

أ- المرحلة الأولى القديمة التراثية قامت فيها القوائم بممارسة دور تعويضي عند فقد الكلمات أو اللسان في سياق فني ما.

ب- المرحلة المعاصرة ظهرت فيها القوائم استجابة لمطالب الإفراط " والشره الكلامي سعيا وراء العلم المبهج" على حد تعبير إيكو(ص: (٣٨).

Scanned with CamScanner

(٥) خاتمة

لم يكن كتاب إيكو هو الأول في المكتبة الأوروبية التي يعالج موضوع القائمة، لكنه مسبوق بعدد، وإن يكن قليلا، من الأدبيات من مثل:

أ- كتاب روبرت إمي بيلكتاب: القائمة، جامعة بيل ٢٠٠٤م.

ب-وكتاب فرانسيس سبافورد: القوائم في الأدب، ١٩٨٩م.

وهو ما يعني أن المجال مرشح للزيادة والتعميق في هذه الثقافة.

أما في الثقافة العربية فإن فراغا رهيبا يهيمن على هذا المشكل البحثي مع أنه بالإمكان أن يضيف فحص موضوع القوائم في الثقافة العربية الإسلامية آفاقا جديدة لهذا المشكل البحثي، ولاسيما ونحن نملك أنواعا مستقلة من القوائم اللفظية والبصرية، في الميادين التالية:

أولا- رسوم تصوير المخطوطات في التراث العربي الإسلامي.

ثانيا- القوائم اللفظية الممتدة لأنواع كثيرة من المعلومات، والممتلكات، في كتب السيرة النبوية، والسير الذاتية للقيادات الزعامات الدينية والتاريخية والعلمية.

ثالثا- قوائم الكتب الطويلة في مصنفات الببليوجرافيا العربية التراثية والمعاصرة.

رابعا- كتالوجات الفن المعاصرة.

إن المجالات ما تزال تعاني فراغا يدعو البحث المعاصر في الثقافة العربية إلى التقدم للتعاطي معها.

المراجع:

- لا نهائية القوائم: من هوميروس حتى جويس، لأمبرتو إيكو، ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، مراجعة الدكتور أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، ٢٠١٣م.

Scanned with CamScanner